علماء زواوة والإرث الثقافي القلعي

أ. مفتاح خلفات

جامعة محمد بوضياف المسيلة

شكل تواجد القلعيين الذين توافدوا على بجاية،[1] سندا ودعما للنهضة الفكرية، التي أسس لها الحماديون، بما وفروه من كتاتيب ومساجد[1] أثرت

(1) أرجعت النصوص التاريخية أن فكرة بناء بجاية كان تحت تأثير دخول الهلاليين إلى بلاد المغرب، صحيح أن المصادر لم تشر إلى اكتساحهم للقلعة – لحصانتها الطبيعية- إلا أنها بالمقابل أفاضت بالحديث عن إفسادهم وضروهم بالقبائل المحيطة بها في كل من طبنة والمسيلة، وقد انعكس ذلك سلبا على المناخ السياسي العام بشيوع الفوضى وانعدام الأمن لاسيما مع انتشار ظاهرة اللصوصية وقطاع الطرق الذين أحكموا سيطرتهم على مسالك التجارة، هذا إلى جانب ما كان يقدمه الأمراء والملوك من الإتاوات إلى شيوخ القبائل الهلالية نظير إعطائهم حق التصرف في أوطانهم على حد تعبير ابن خلدون، ولعل أبرز معالم التحول الذي عرفه المغرب الأوسط بعد الهجرة الهلالية بعد منتصف القرن 5ه/11م هو الاختلال الحاصل في عملية التوازن الديموغرافي بين الداخل والساحل من جهة، وبين المدينة والريف من جهة أخرى ، لذا لم يعد من الممكن أن يستمر وجود القلعة التي عانت من اختناق كبير نتيجة حركة التوطن الهلالي، الذي شمل فضاء جغرافيا واسعا في محيط المدينة، يضاف إلى ذلك أن الهلاليين أنفسهم لم تكن لهم القدرة على تقبل فكرة السلطة أو سيادة الدولة المركزية بحكم طابع البداوة والانتجاع التي تميزوا بها ؛ أنظر: ابن خلدون: العبر، ج6، ص24– 193 ؛ صالح بعزيق: بجاية في العهد الحفصي دراسة اقتصادية واجتماعية: منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، 2006، ص ص54– 55.

الساحة الثقافية وحولت المدينة إلى منارة للعلم يقصدها الطلاب من كل النواحي، لاسيما من منطقة زواوة المحيطة ببادیتها، كما أثمرت سياسة ملوك بني حماد في توطن العديد من القبائل الصنهاجية التي ساعدت كثيرا في إعمار المدينة.

بجاية: دار زواوة

تجمع النصوص التاريخية أنه بعد انتقال الناصر بن علناس (454-481هـ/1062- 1088م) إلى عاصمته الجديدة بجاية سنة 461هـ/1069م بادر أول الأمر إلى إسقاط المكوس والمغارم على سكانها رغبة منه في استقطاب القبائل المحيطة بها من جهة، ولتعزيز نفوذه وسلطانه من جهة أخرى، تأسيا بسلفه حماد (408/419هـ) عندما نقل إلى القلعة سنة 398هـ/1007 سكان جراوة والمسيلة وحمزة وأسكنهم بها،[2] ذلك أن إعمار المدن لابد أن يكون من ضواحي تلك المدينة وما قاربها من الجبال والبسائط على حد تعبير ابن خلدون،[3] ولقد أثمر هذا الامتياز الجبائي بتزوح عدد من الأسر الزواوية من بني غبرين وبني عيسى ومشدالة،[4] لاسيما وأن تخطيط المدينة كان بساحتهم[1] مما خلق نوعا من

(1) ذكر منها الغبريني المسجد الأعظم، القصبة، النطاعين، الإمام المهدي، المرجاني، العين الجزيري (عين البربر) ؛ عنوان الدراية، ص ص91- 161- 165.

(2) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مج6، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1992، ص202.

(3) ابن خلدون: المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2000، ص250.

(4) ومن القرائن التي تعزز هذا الطرح ما ساقه الغبريني في عنوانه من تراجم لأسر من زواوة التي توطنت بجاية كما هو الشأن بالنسبة لأبي زكريا يحي الزواوي، وهلال الغبريني، وأسرة ناصر الدين المشدالي (ت 731هـ/1332م) التي سكنت بملالة ؛ أنظر: الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981، ص ص133- 135- 141- 142- 200- 216- 226- 268.

ديناميكية الترابط والاندماج لعناصر قبيلة في مجتمع المدينة، هذا إلى جانب من هاجر إليها من أهل المسيلة والقلعة، يؤيد هذا ما أشار إليه الإدريسي بأن بجاية عمرت بعد خراب القلعة.[2]

وقد أكد ابن خلدون على هذا النزوح في معرض حديثه عن ثورة الدعي أبي عمارة قوله: "وكان من بيوتات بجاية الطارئين عليها من المسيلة"،[3] وقد ربط هذا الأخير بين مرحلة تأسيس الدولة وإسقاط المغارم قوله: "اعلم أن الدولة في أولها تكون بدوية فيكون خُلقُ الرفق بالرعية والقصد من النفقات فلا تحتاج الدولة لكثرة المال".[4]

لكن الملاحظ أن عملية النزوح بالنسبة لقبائل زواوة كانت في بادئ الأمر طوعية، ذلك أن غاية عدد من العناصر الريفية هو التمدن والتحضر، وربما سعى إلى قيادة المدينة على رأي ابن خلدون[5] الذي يضيف بأن هؤلاء البدو النازحون ينزلون المدن والأمصار ويتأهلون، بمعنى أن استقرارهم كان يهدف إلى التأهيل باختيار مهنة معينة لمساعدتهم على العيش،[6] غير أن ملامح التحول الاقتصادي الذي صارت إليه بجاية غير من السياسة الجبائية، فكثرة النفقات على البناء والتأنق في اتخاذ القصور إلى جانب ما كانت تحتاجه الدول من أموال لتجهيز الجيوش المحاربة ضد زناتة وصنهاجة، أجبرت أمراء بني حماد

---

(1) ابن خلدون: العبر، مج6، ص152.

(2)نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تح: محمد الحاج الصادق، المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق، الجزائر، 1983، ص111.

(3) العبر: مج6، ص388.

(4) المقدمة: ص ص219- 221.

(5) نفسه، ص ص97- 98.

(6) ابن خلدون: المقدمة، ص270.

إلى إثقال كاهل الرعية والقبائل بما يفرضونه من ضرائب ومكوس، التي كانت لها تداعيات خطيرة انعكست سلبا على العلاقة بين السلطة المركزية والقبائل المحيطة بها وهو ما يفسر لنا ظاهرة التمرد والعصيان والخروج عن السلطان الذي تبنته قبائل زواوة، ومع ذلك فإن استطاع الناصر بن علناس وابنه المنصور من فرض هيبة الدولة بتطويع هذه القبائل وإدخالها إسميا في النظام العام ومؤسساته، وحسبنا دليلا على ذلك ما أشار إليه ابن خلدون بقوله: "فانقادوا لهم وأذعنوا".[1]

ونخلص مما سبق إلى نتيجتين هامتين هما:

الأولى: أن ما يقال على عملية النزوح القبلي من الريف إلى المدينة سواء كان طوعية أو إجبارية إلا أنها شكلت رافدا في تقوية النسيج العمراني، ونمو الحركة الديموغرافية ببجاية وهو ما أكده ابن خلدون "وصارت بجاية دار زواوة"[2] أي الحديث عن تجذر قبلي داخل المدينة ونسيجها العمراني.

الثانية: أنه كان من ثمار هذه السياسة أيضا وتقديرا لجهود كل من الناصر وابنه المنصور، ويمكن القول أنهما أوجدا مساحة للتلاقي بين مختلف العناصر الاجتماعية والطوائف المهنية (علماء- تجار- حرفيين) عامة وطلبة العلم من الزواويين وعلماء القلعة على وجه الخصوص، والسؤال المطروح: كيف ساعد القلعيين في تأطير نخبة علماء زواوة والتي عكست في مضمونها أنموذجا لروح التكامل والتفاعل بين المدينة والبادية؟

الواقع أن الإجابة عن هذا السؤال تحيلنا بضرورة العودة إلى كتب التراجم التي اهتمت بموضوع الحياة الفكرية ببجاية على غرار ما وفره الغبريني في

---

(1) العبر: مج6، ص152.

(2) نفسه: ص120

عنوانه من –تراجم– لعلماء ساهموا في تأطير الحياة الثقافية بهذه المدينة، منهم على وجه الخصوص علماء القلعة الذين تتلمذ على أيديهم نخبة من العلماء الزواويين ويأتي في مقدمة هؤلاء: [1]

أبو زكرياء يحي الزواوي (ت 1210/611م) الذي لم يكتف بما حصله من العلوم ببجاية وآثر الانتقال إلى قلعة بني حماد[2] وجلس إلى فقيهها ابن الخراط[3] الذي كان أحد الفقهاء البارزين في زمنه، ومثله أيضا أبي العباس الغبريني (ت 704هـ/1304م) [4] الذي استوطن المدينة فدرس علوم الحديث والفقه

---

(1) نذكر من بين هؤلاء أبو عبد محمد بن محمد بن أبي بكر المنصور القلعي، أبو عبد الله محمد بن حسن القلعي ؛ أنظر الغبريني: المصدر السابق، ص ص93- 94- 140.

(2) يذكر الغبريني أن الناصر بن علناس رغم انه انتقل إلى بجاية إلا أنه بقي يتردد على القلعة، وأن ابنه المنصور لم يغادرها إلا في حدود سنة 483هـ مما يعطي الدليل على أن القلعة حافظت على مكانتها السياسية كعاصمة ثانية للدولة الحمادية، وهذا ما يفند تخريجات بعض الباحثين الذين أشاروا إلى خرابها على يد الأعراب الهلالية لأن "القلعة" رغم أنها فقدت مكانتها السياسية كعاصمة للدولة بدءا من سنة 483هـ/1090م إلا أنها حافظت على رصيدها الفكري والحضاري وشكلت رافدا قويا في إمداد بجاية بنخبة من الأعلام، يؤيد هذا ما ذكره ابن خلدون بأنها كانت مقصد لطلاب العلم من البلاد القاصية، فحافظت بذلك على مكانتها كحاضرة علمية وربما لهذا السبب اختارها أبو الفضل النحوي التوزري موطنا وفضاء لممارسة طقوسه الصوفية إلى أن توفي بها سنة 513هـ/1110م ؛ الغبريني: المصدر السابق، ص7.

(3) نفسه، ص183.

(4) ورد في تعليق محمد مسعود جبران محقق كتاب سبك المقال لفك العقال، لابن الطواح، ص 201 الهامش رقم 2 ، أن أبا العباس الغبريني توفي سنة (714هـ/1314م) بداء الطاعون لكن الحقيقة كما أجمعت جل المصادر التاريخية أن هذا الأخير قتل سنة 704هـ/1304م بعد أن وشى به أعداءه لدى السلطان أبي البقاء بتهمة أنه داخل سلطان الحضرة (أي إفريقية) في أمر دخوله إلى بجاية فكلف منصور التركي بقتله في محبسه ؛ أنظر ابن خلدون: مج6، ص 405 ؛

على يد شيخه أبي محمد عبد الله بن محمد بن عمارة القلعي[1] وانتفع من ابن ميمون التميمي (ت 673هـ/1272م) في علوم اللغة وقد أشاد ببراعة شيخه في هذا الفن.[2]

ولعل من أبرز صور التلاقح الفكري والتأثير العلمي بين علماء القلعة وزواوة أن أبا زكريا يحي الزواوي (ت 611هـ/1214م) درس لبعض أبناء القلعيين وهو أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الله الذي يذكر الغبريني بشأنه أنه كان ملازما له، عاكفا عليه، وقارئا بين يديه.[3]

وفي نفس السياق دلت تراجم هذه المرحلة ما أسهم به علماء القلعة بعطاءاتهم الفكرية في شتى فنون المعرفة كأبي عبد الله بن محمد بن بكر المنصور القلعي الذي قطع الغبريني أنه لم يكن ببجاية في وقته أحدا يريد قراءة علم الفرائض إلا ويقصد مجلسه العلمي،[4] ووصف أبي عبد الله بن حماد بأنه أوحد عصره في علم القراءات ورواية الحديث، فمن ظفر بإجازته فقد حصل على الغاية القصوى، يؤيد هذا ما ذكره الغبريني قوله:"ما أدرت من الطلبة إلا

الوادي آشي: البرنامج تح: محفوظ في دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1981، ص 11 ؛ النباهي: تاريخ قضاة الأندلس "المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء و الفتيا" ، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ص 132.

(1) الغبريني: المصدر السابق ، ص 93.

(2) نفسه، ص94 .

(3) نفسه، ص 265.

(4) نفسه، ص 237.

وهم يفخرون بلقائه والقراءة عليه"[1] كما أن أبي عبد الله محمد بن صمغان القلعي خص سقيفة في بيته خواص طلبته.[2]

وفضلا عن الجهود التي بذلها علماء القلعة في الإزدهار العلمي لبجاية كان لبعض مؤلفاتهم كتلك التي صنفها أبي علي المسيلي (توفي أواخر القرن السادس هجري) دورها ازدهار العلوم منها كتاب "التذكرة" في أصول علوم الدين وكتاب "النبراس في الرد على منكر القياس" وكتاب "التفكر فيما تشتمل عليه السور والآيات من المبادئ والغايات" انتفع بها عدد من علماء زواوة منهم أبي العباس الغبريني الذي وصفها بأنها من أجل الموضوعات بما احتوته من معارف وأن كلامه في كتاب "التفكر" أحسن مما ذكره أبي حامد الغزالي، وقد أحاط فيه بعلم المنقول والمعقول وعلم الظاهر والباطن، واعتنى به طلبة بجاية ولقب مؤلفه بأبي حامد الصغير.[3]

والجدير بالذكر في هذا الباب أن نخبة من أعلام زواوة الذين استوطنوا بلاد المشرق ممن حفظت المصادر التاريخية أسماءهم لاسيما في الفترة الممتدة ما بين القرن السادس والسابع الهجريين، الثاني عشر والثالث عشر ميلاديين، وسواء منهم الذين دخلوا بلاد الشام ومصر، أو جاوروا الحرم المكي والمديني، تلقوا تعليمهم أول الأمر على يد علماء بلدهم ويقصدون بذلك مدينة بجاية.

صحيح إننا لا نملك من النصوص بما يفيد أنهم تتلمذوا على يد علماء قلعيين لكن المؤكد أنهم أخذوا عن تلامذتهم الذين يمكن اعتبارهم كوسائط لانتقال المعرفة، وحسبي دليلا في ذلك ما أشار إليه الغبريني أن سند تعليمه

(1) نفسه، ص 265.

(2) نفسه، ص 189.

(3) نفسه، ص- 69.

يتصل بأبي علي المسيلي عن طريق - أبي عبد الله الكناني وأبي محمد بن برطلة عن الشيخ أبي عبد الله بن حماد عن القاضي أبي علي المسيلي-[1] ومن بين هؤلاء ابن معطي الزواوي (ت 628هـ/1238م) الذي أخذ العلم عن مشائخ بلده[2] ثم انتقل إلى مصر وسكن دمشق فأخذ عن أعلامها ثم جلس لإقراء النحو، فانتفع به خلق كثير من طلبة العلم،[3] وزين الدين الزواوي (ت 681هـ/1281م) الذي كان أول من تصدر للقضاء المالكي بدمشق سنة 664هـ/1270م[4] وخلفه بعد اعتزاله ابن عمه جمال الدين الزواوي (ت718هـ/1318م) وغيرهم من الأعلام ممن

---

(1) الغبريني: المصدر السابق، ص265.

(2) ابن خلكان: وفيات الأعيان، مج6، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ص197.

(3) السيوطي: حسن لمحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، مج1، ص437.

(4) ابن طولون: الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام، تح: صلاح الدين المنجد، دمشق، سوريا، 1956، ص56 ؛ لم يكن القضاء على المذهب المالكي قد عرف في بلاد الشام في فترة حكم الزنكيين والأيوبيين كما كان الحال بالنسبة للمذاهب الأخرى (الشافعية، الحنفية، الحنبلية) ومرد ذلك يعود أساسا إلى ندرة العاملين في هذا المذهب، لكن ظهوره ارتبط مع ارتفاع عدد الوافدين من المغاربة والأندلسيين الذين استوطنوا أرض الشام باعتبار أن غالبية هؤلاء كانوا من المالكية، والمؤكد أن اعتماد قاضي مالكي لم يؤخذ بصورة رسمية إلا في النصف الثاني من القرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي، وبوشر العمل به رسميا في دمشق سنة 664هـ/1265م وتبع ذلك في سائر المدن الشامية، ومع ذلك فإنهم غيبوا عن قضاء العسكر الذي اقتصر على قاضيين واحد من الشافعية وآخر من الحنفية، أنظر: علي أحمد: الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام من نهاية القرن الخامس حتى نهاية التاسع الهجري، دار طلاس، دمشق، سوريا، 1989، ص224 وما بعدها ؛ إبراهيم زعرور: "القضاة الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام في عصر المماليك"، مجلة الدراسات التاريخية، 53 و54، (1995)، ص61 وما بعدها.

أسهموا بجهود رائدة في الحياة الفكرية لحواضر المشرق من جهة، وفي تطعيم مسار نهضة المذهب المالكي من جهة أخرى.[1]

وبناءا على ما تقدم فإن كل هذه القرائن تعكس بوضوح الجهود المعتبرة التي بذلها علماء القلعة في حركة الازدهار العلمي الذي بلغته بجاية، التي تحولت مع مرور الزمن إلى حاضرة علمية وقاعدة اقتصادية لكثير من الأمصار،[2]، ونستنتج من حصاد ما سبق أن الإرث العلمي القلعي لم يتوقف بنهاية الدور التاريخي لقلعة بني حماد وإنما تواصل عن طريق تدريس مؤلفات ومرويات علمائها ببجاية، استفاد منها عدد من الطلبة الزواويين الذين زاولوا الدراسة في العاصمة الثانية للحماديين أو حتى من رحل منهم إلى بلاد المشرق.

(1) ابن كثير: مج13، منشورات مكتبة المعارف، بيروت، 1988، ص312.

(2) الإدريسي: المصدر السابق، ص116.